

## الأساس المذهبي والانتماء العنصبي ودورهما في الدولة الرستمية 908-776/هـ/296-160م

### Doctrinal Basis and Ethnic Affiliation and their Role in the Rustamiya State 160-296 AH / 776-908 AD

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان - الجزائر	تاريخ وسيط إسلامي	ط.د شواكري منير Doctorant. Chouakri Mounir <a href="mailto:Chouakrimounir1974@gmail.com">Chouakrimounir1974@gmail.com</a>
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان - الجزائر	تاريخ وسيط إسلامي	أ. بوشكيف محمد Prof. Bouchekif Mohamed <a href="mailto:bouchekif.moulay13000@yahoo.fr">bouchekif.moulay13000@yahoo.fr</a>
DOI :		

الإرسال: 2021/10/07 القبول: 2021/11/08 النشر: 2021/12/27

#### ملخص

حظيت القبيلة بمكانة أساسية في بناء المجتمع المغربي في العصر الوسيط، لكنها لم تتمكن من تأسيس كيان متماسك وهو ما يعرف بالدولة، إلا في ظروف معينة وبشروط محدّدة، وقد شهدت بلاد المغرب الإسلامي في نهاية النصف الأول وبداية النصف الثاني للقرن الثاني الهجري، تأسيس مجموعة من الدول المستقلة عن الخلافة في المشرق، ومن هذه الدول نذكر الدولة الرستمية الإباضية، فكيف تمكن المجتمع الرستمي القبلي الذي تساوت فيه العصبية أن يؤسس دولة مذهبية؟ وينفتح على مذاهب وعصبية مختلفة؟ وهل استطاع أن يحافظ على تماسكه مع ضعف الوازع الذي كان سببا في وجوده؟

**كلمات مفتاحية:** المغرب الإسلامي؛ القبيلة؛ المذهب؛ الإمامة؛ الصراع العنصبي.

#### Abstract:

In the middle ages, tribes played an important role in the construction of Moroccan society In the Middle Ages, but they could not establish a coherent entity, that is, the state, except under certain circumstances and conditions, At the end of the first half and the beginning of the second half for the second century AH, the Islamic Maghreb established a group of countries independent of the Caliph, Among these countries, we mention the Ibadi Rustamiya state , So, how did the equal rural tribal society of tribalism (alassabia) establish a sectarian state?And he is open to different theories and prejudices? Was he able to maintain his cohesion despite the weakness of the scruples that were the reason for his existence?

**Keywords:** Islamic Maghreb; The tribe; doctrine; imamate; tribal conflict.

#### مقدمة

شهد المغرب عبر التاريخ صراعات مختلفة تضاربت فيما المصالح بين السكان الأصليين لهذه البلاد وهم المعروفين بالبربر، وبين الوافدين على هذه البلاد سواء كانت وفادتهم لغرض اقتصادي أو لسبب اجتماعي أو لمراد سياسي أو توجه ديني، لكن الغالب على هذه التوجهات أو بالأحرى الظاهر منها هو الذي كان يحمل أهدافا دينية، وفي كل هذا التحول الذي عاشته بلاد المغرب، لم يفقد البربر مكانتهم بين فئات المجتمع وهم الذين كانوا يمثلون أغليبيته.

ومع دخول الإسلام إلى بلاد المغرب اصطدم البربر بواقع آخر كانوا فيه ضحية لصراعات قديمة بين العرب الفاتحين أنفسهم وهو الصراع الذي جسده القبائل القيسية واليمنية، دائما محقّزه الدافع الاقتصادي، فكانت بلاد المغرب الإسلامي مسرحا لصراعات شبه دائمة إذا ما استثنينا فترات متفرقة غلب فيها الوازع الديني الذي حاد بهم عن مثل هذه التصرفات.

ظهر نوع آخر من التحدي في المجتمع المسلم الجديد بكل أطرافه بربر، وعرب، وأعاجم، فأضحوا يجمعهم الدين ويفرقهم الانتساب إلى القبيلة أو العرق، بعد أن تأسست إمارات مستقلة في هذه البلاد عن الحكم المركزي في الشام ثم بغداد، ومن أبرز هذه الإمارات إمارة بني رستم الإباضية، والتي كانت تجمع مذاهبا وعرقيات مختلفة، فلا بد أن تتضارب المصالح تبعا لذلك.

نحاول في بحثنا هذا أن نتعرف على الحثيات التي تأسست فيها الدولة الرستمية، وفق مذهب ديني محاصر في المشرق، تحت زعامة فارسية، بدعامة عصبية قبلية متكافئة في القوّة نسبية، ثم كيف تعاملت الدولة مع هذه المتناقضات المختلفة خاصة وهي التي عرفت بالانفتاح المذهبي والفكري.

اتبعنا في بحثنا هذا المنهج التاريخي من حيث تتبعنا للأحداث التاريخية للفكر الإباضي حتى تمكنه من إنشاء الدولة الرستمية، ثم ما آلت إليه الدولة بعد تلك التحولات التي تعرض لها المذهب نفسه، وكذلك دخول المذاهب والعصبات الأخرى في محك الصراع تبعا لذلك، معتمدين على المصادر والمراجع الإباضية في المرتبة الأولى، ثم المراجع والمصادر غير الإباضية والتي نجد في بعضها الموضوعية التاريخية.

فكيف يمكن للدولة الرستمية بتركيبها البشرية المتنوعة وبانفتاحها المذهبي أن تقف في وجه التحديات الداخلية والخارجية، وهل أثرت هذه التركيبة على وجودها وكيف ذلك؟

### العنوان الرئيسي الأول: المحكّمة في بلاد المغرب الإسلامي

ظهر المحكّمة زمنيا بعد معركة صفين 37هـ التي دارت بن جماعتين من المسلمين، جماعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه خليفة المسلمين، وجماعة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه والي الشام حين رفضوا التحكيم، فخاضوا معارك ضد علي رضي الله عنه ثم بعده ضد الحكم الأموي، لكنهم لم يستطيعوا إسقاط خلافة التورث في بلاد المشرق فنقلوا دعوتهم إلى البلاد البعيدة عن الخلافة .

### العنوان الفرعي الأول: بداية ظهور المحكّمة في الإسلام

لم يقبل جماعة ممن كانوا في جيش علي رضي الله عنه التحكيم وخرجوا عليه فحاربهم علي ومعاوية بعده، وأصبحوا يعرفون منذ ذلك الوقت بالمحكّمة، (ابن كثير الدمشقي، 1992، 274) (الطبري، د.ت، 859) (اليعقوبي، 1883، 220) (بن أبي حديد، 2007، 362-363)، لكن هناك من يشكك في صحة هذه الروايات ويذكر أن علي رضي الله عنه قبل الصلح طواعية وقال بيننا وبينكم كتاب الله، لكن القراء(الخوارج) انكروا عليه فعلته وخرجوا عليه. 2(كبير علال، 2009، 231-218). (فلهاوزن، 1958، 14).

والمحكّمة بعد هذه الحادثة عرفوا بعدة تسميات أهمها: الخوارج وهم في الحقيقة عرفوا لأول مرة في فتنة الدار، وهي فتنة أصابت دولة الإسلام على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، حتى إن ابن كثير وصف( الثائرين على عثمان بالخوارج) (ابن كثير الدمشقي، 189، 1992)، كما عرفوا بالمحكّمة الأولى فهم أول من أجاب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه إلى التحكيم، ثم رفضوه حين خالف مرادهم وأطلقوا جملتهم المشهورة: " لا حكم إلا لله" (ابن كثير الدمشقي، 279، 1992)، (الطبري، د.ت، 867)، (اليعقوبي، 222، 1883)، وعرفوا بالبغاة وهو حكم أطلقه عليهم علي رضي الله عنه وأصحابه، والشراة وهو اسم تسموا به هم أنفسهم استنادا لقوله تعالى:(إن الله اشترى من

المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة....) (قرآن، 111)، والقراء هم قراء أهل العراق وقراء أهل الشام (ابن كثير الدمشقي، 259، 1992). (أبو سعدة، 1998، 29-30).

### العنوان الفرعي الثاني: ضعف الدولة الأموية وأثره على بلاد المغرب الإسلامي

مع بداية ضعف الأمويين وعدم تمكّنهم من مراقبة كل ما يجري في أرجاء الدولة الواسعة، بدأت مظاهر التعسف تنصدر الواجهة السياسية وتعكر صفو الدولة بما بدر منهم من مظالم تجاه الأمم المنضوية في حكمهم، ومن هؤلاء الولاة في بلاد المغرب الإسلامي موضع بحثنا الوالي الأموي يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج الثقفي (101-103هـ/720-723م)، هذا الوالي الذي استخلفه الحجاج الثقفي عند موته على العراق فاغتنب به الخليفة الوليد بن عبد الملك (الذهبي، 2004، 4230) (ابن عساكر، 1409-15، 1989-18) (ابن الأثير، 1987، 353-354) (المراكشي، 48، 1983-49) (أبو العباس الناصري، 46، 1997)، وهو الذي وضع على رقاب البربر المسلمين الجزية واعتبرهم فيء حرب، كما قام بوشم موالي موسى بن نصير وجعلهم أخماسا، "وأحصى أموالهم وأولادهم، ثم جعلهم حرسه وبطانته، كما أخذ محمد بن يزيد القرشي فعذبته وجلده جلدًا وجيعًا..." (ابن عبد الحكم، 242، 2005)، مقابل هذا الظلم لم يجد البربر مفرًا من الثورة وقاموا بالقضاء على والي الخليفة، لكن عملهم هذا كان مجرد دفاع عن الحقوق المهضومة ولكي يبينوا حسن نيّتهم وصفاء مرادهم ولوا علمهم محمد بن أوس الأنصاري (ابن عبد الحكم، 2005، 288)، (المراكشي، 49-49، 1983)، وكتبوا للخليفة يزيد بن عبد الملك يبرّرون له تصرفهم، وأنهم لم يزعوا يدا عن طاعة. (الحريري، 49، 1987-50)

استجاب الخليفة لمطالب البربر وعيّن عليهم بشر بن صفوان وهو من اليمنية سنة (103هـ-721م) (المراكشي، 1983، 49) (الكندي، د.ت، 91-92) (خليفة، 1985، 334)، (المراكشي، 1983، 49) الذي نشر المساواة بين العرب والبربر، لكن مع وفاة بشر بن صفوان سنة (109هـ-727م) عين الخليفة هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمي سنة (110هـ-728م) وكان من غلاة القيسية والذي عذب عمال بشر (المراكشي، 1983، صفحة 50)، (أبو العباس الناصري، 1997، 47-48)، ولم يسلم البربر كذلك منه، فسبا نساءهم إذ يذكر ابن عبد الحكم أن عبيدة حمل معه إلى الخليفة سبعمائة من الجواري المتخيرة والإيماء والعبيد وأنواع الدواب والذهب والفضة. (ابن عبد الحكم،

2005، 292) وأسرف في غزو قبائلهم، فكان لفعلة تلك الأثر البالغ في اعتناق البربر لمبادئ الخوارج وانتشارها بينهم (الحريري، 1987، 51-52).

كذلك عان البربر مع الوالي عبيدة الله بن الحبحاب (تولى 116هـ-734م) رغم ثقافته الواسعة، فهو الذي وصفه ابن عذارى بالرئيس النبيل والأمير الجليل. (المراكشي، 1983، 51)، فاعتبر أرض المغرب أرض غنيمة وأسرف في إرسال الهدايا والغنائم والطرف إلى الخلافة التي كانت تواجه نقصا في ميزانيتها، وبالتالي سمح لنفسه وولاته بجمع الأموال من البربر بطرق مستفزة لهم. (الحريري، 1987، 53) حتى بلغ بعامله في طنجة عبد الله المرادي بأن يسيء السيرة في المغرب (وتعدى في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء للمسلمين، فكان فعله الذميمة هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد). (المراكشي، 1983، 51-52)، (الرقيق القيرواني، 1990، 73).

ومع ضعف الدولة الأموية وتعاضم مسؤولياتها تجاه رعيها، وزد على ذلك العصبية القبلية التي بنيت عليها الدولة، وهي عصبية أهل الشام الذين وقفوا بجانب معاوية في صراعه مع علي والحسين (العش، 1985، 341)، التي كان من الضروري إيجاد الأموال اللازمة لتغطية حاجياتها لتبقى على ولائها للدولة الأموية (العش، 1985، 341)، كل هذا دفع بالخلفاء إلى التغاضي عن أخطاء بعض عمالهم في الأمصار وهم يقومون بتحصيل الأموال بالجور على الرعية.

### العنوان الفرعي الثالث: انتشار الفكر الخارجي في أوساط البربر

بعد أن استنفذ البربر الوسائل السلمية من أجل إرجاع حقوقهم كمسلمين داخل الدولة الإسلامية، التفوا حول دعوة الخوارج التي رأوا فيها السبيل الوحيد من أجل استرجاع شرفهم، لما تحتويه من مظاهر التمسك بالشريعة وإنكار أي شكل من أشكال الظلم والتمييز، بالإضافة إلى بساطة ووضوح فكرها، والأهم من ذلك هو أن حق الإمامة مضمون ومتاح لكل مسلم مهما كانت عصابته أو قبيلته. (محمود اسماعيل، 1985، 40)، (الحريري، 1987، 55)، والذي ساعد على انتشار دعوة الخوارج على نطاق واسع في بلاد المغرب الإسلامي هو الوسيلة المتبعة من قبل دعاة الإباضية والصفوية، والتي كانت تعتمد

على البسيرة مع استعمالها لشعارات أساسها إصلاح المجتمع المسلم والعمل بالكتاب والسنة (الحريري، 1987، 55)، وبالتالي: ( استطاعوا أن يجدوا فيها تربة خصبة لبذر أفكارهم) كما وضح ذلك ألفرد بل (بل، 1987، 146)، خاصة أن الخوارج بدعوتهم البسيطة لم يرهقوا عقول البربر بمسائل فلسفية وهم يطرحون مشروعهم الاستقلالي عن حكم الدولة الأموية (محمود اسماعيل، 1985، 41)، وعليه فمن الجلي أنّ اضطراب أحوال بلاد المغرب في العهد الأموي الأخير ساعد على نزوح الفكر الخارجي إليها، ليحقق ما فشل عن تحقيقه في بلاد المشرق، يصف ابن خلدون الوضع قائلاً: (ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها، من الإباضية والصفيرية) (ابن خلدون، 2000، 144)، كما صف الطبري الوضع قائلاً: (فمازال بربر أفريقية من أسمع أهل البلدان وأطوعهم الى زمن هشام بن عبد الملك، فلما دب إليهم دعاة العراق واستشاروهم شقوا عصاهم وفرّقوا بينهم إلى اليوم) (بن جرير ، 1970، 254)، وهو يذكر ذلك الحوار الذي كان بين العامة من البربر ودعاة الخوارج وما فيه من صفاء لسيرة البربر وما قابله من حسن جدال المحكمة للبربر وقوة أدلتهم (الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1970، 254)، ورغم ذهابهم إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ليشتكوا أمرهم إليه إلا أنهم وجدوا من يمنعهم فرجعوا إلى بلادهم عازمين على الحرب، يقول الصلابي: ( وهكذا اندلعت بأفريقية والمغرب ثورات لا نهاية لها، ابتدأت من سنة 122 هـ وهي أول ثورة في إفريقية في الإسلام) (الصلابي ، 2008 ، 472).

#### العنوان الرئيسي الثاني: الدولة الرستمية حاملة لشعار الإباضية في بلاد المغرب الإسلامي

يعتبر المذهب الإباضي من المذاهب الخارجية التي عرفتها الأمة الإسلامية، وهذا المذهب رغم أنه يرى الخروج على الخلفاء إلا أنه لا يُخرج غير الإباضية عن ملة الإسلام، ولذلك لم يتعرض إلى بطش الخلافة بالصفة نفسها التي تعرضت لها المذاهب الخارجية الأخرى كالأزارقة والنجادات، وهذا ما سمح لعلماء المذهب من تدريس أصول المذهب ونشره في أقطار البلاد الإسلامية، فأخذت بلاد المغرب الإسلامي حظاً وفيراً منه.

العنوان الفرعي الأول: ملامسات ظهور المذهب الإباضي في بلاد المشرق وانتقاله إلى بلاد المغرب الإسلاميين

يرجع المذهب الإباضي إلى عبد الله بن أباض المري التميمي، والذي عرف بعدم تطرفه، ومن تلامذته أبو الأشعث جابر بن زيد الأزدي الذي يعتبره الإباضية من أكبر علمائهم، إلا أن بعض المؤرخين يخالفونهم في ذلك لتزكية ابن عباس له. (ابن قتيبة، د.ت، 622) (الشماعي، 72، 1987-73)، (أبو زكرياء، 1982، 9-10)، (إبن أبي حاتم، 1953، 494-495).

وتذكر المصادر الإباضية وجود علاقة جيدة بين عبد الله بن أباض والخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حتى أن هذا الأخير اتخذه مستشارا له (أبو زكرياء، 10، 1982)، كذلك فعل نحوه تلميذه جابر بن زيد الأزدي (أبو زكرياء، 9، 1982-10)، (الشماعي، 72، 1987-73) الذي ارتبط بعلاقة وطيدة هو الآخر مع الحجاج بن يوسف الثقفي الذي عرض عليه القضاء، لكن بعد موت الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 86 هـ ساءت علاقة الإباضية مع الحجاج (أبو زكرياء، 10، 1982-12).

وكان من أعلم تلامذة جابر بن زيد الأزدي وأشدهم تفانيا في فروع المذهب رجل اسمه مسلم بن أبي كريمة التميمي أبو عبيدة، وهو ذو أصل فارسي وانتماؤه إلى قبيلة تميم كان من قبيل اللوات، وهو ما عرفه ابن خلدون بالانتساب إلى القبيلة عن طريق اللوات والحلف (بن خلدون، 138، 2021) فلم يكن أصله حائلا دون اختياره خليفة لجابر بن زيد على رأس الإباضية (أبو زكرياء، 12، 1982).

تمكن مسلم بن أبي كريمة من تأسيس معهد للدراسات الإباضية بالبصرة، مهمته تكوين الطلبة ثم بعثهم إلى مختلف البلدان لنشر الدعوة (أبو زكرياء، 13، 1982)، اهتم دعاة الإباضية ببلاد المغرب فكانت ميدانا مثاليا لنشر دعوتهم، حيث أرسل مسلم بن أبي كريمة سلمة بن سعيد في بداية القرن الثاني الهجري لنشر الدعوة الإباضية بالمغرب (الشماعي، 81، 1987)، فأصبح جبل نفوسة دار هجرة للمذهب الإباضي في بلاد المغرب، وقد اختار سلمة بن سعيد وبعده خليفته أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر أو ابن مغيطر النفوسي (الشماعي، 128، 1987) ممثلين عن الجهات التي انتشر فيها المذهب للتوجه إلى البصرة لزيادة طلب العلم على يد مسلم بن أبي كريمة وهم: عاصم السدراتي من غرب الأوراس، وأبو داود القبلي النفازوي من نفازة، وإسماعيل بن درار الغدامسي من

غدامس جنوب طرابلس، وانظم إليهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان، وزعيمهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري اليميني (أبو زكرياء، 54، 1982).

بعد أن مكث هؤلاء الطلبة بالبصرة يهلون العلم وفق أسس المذهب الإباضي على يد مسلم بن أبي كريمة لمدة خمس سنوات، رجعوا إلى بلاد المغرب وولوا عليهم أبا الخطاب إماما (أبو زكرياء، 57، 1982)، واجتهدوا في تثبيت دعائم المذهب وأعلنوا إمامة الظهور سنة 140هـ، فأصبحت بلاد المغرب الإسلامي مكانا مرغوبا لنشر المذهب الخارجي بعد أن انتشر المذهب الصفري بين بربر المغرب الأقصى وبعض نواحي المغرب الأوسط، والاباضي في المغربين الأدنى والأوسط (محمود اسماعيل، 56، 1985).

### العنوان الفرعي الثاني: لجوء عبد الرحمن بن رستم إلى قبيلة لماية

بعد مقتل أبا الخطاب بن السمح المعافري سنة 144هـ-761م في معركة تاورغا (المراكشي، 72، 1983)، (النويري شهاب الدين، د.ت، 40)، (محمود اسماعيل، 1985، 89)، تعرض الإباضية إلى حملة شرسة جهزها محمد ابن الأشعث الخزاعي الذي أنفذه الخليفة المنصور سنة (142هـ/749م) لإلحاق الضرر بهم (النويري شهاب الدين، د.ت، 39)، (المراكشي، 72، 1983)، (ابن الأثير أبي الحسن، 503، 1987)، حينها فضل عبد الرحمن بن رستم اللجوء إلى قبيلة لماية بالمغرب الأوسط والاستجارة بها، فبايعوه بالإمامة وشرعوا في بناء تهرت عاصمة الرستميين (الشماسي، 125، 1987) (أبو زكرياء، 81، 1982) (الدرجيني، د.ت، 41).

تذكر بعض المصادر أن عبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي (البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، 67، 1857) (ياقوت الحموي، 8، 1977) (ابن حزم الأندلسي، د.ت، 511) (عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 146، 2000)، انتقلت عائلته إلى الجزيرة العربية مع الفتوحات الإسلامية، فأصبحوا يعرفون بالموالي، وكان برهام جد عبد الرحمن مولى لعثمان بن عفان رضي الله عنه (البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، 67، 1857) (ياقوت الحموي، 8، 1977)، نشأ رستم والد عبد الرحمن في بيت خلافة فكان له الأثر البالغ في صقل شخصية عبد الرحمن، ويرجح أبو زكريا أن رستم كان يعلم ما يكون لابنه عبد الرحمن من شأن في بلاد المغرب، فتوجه نحو العراق هو وابنه وزوجه

قاصدا أرض المغرب، لكن المنية عاجلته بمكة أو قريبا منها (أبو زكرياء، 1982، 54-55)، ولكننا لا يمكن أن نسلم بهذه القصة بل هذا من الأساطير (بحاز، 1993، 94)، وتشير المصادر وتتفق أن أم عبد الرحمن تزوجت إثر وفاة زوجها حاجا مغربيا قيروانيا، فأخذها وابنها عبد الرحمن إلى المغرب (أبو زكرياء، 1982، 55) (الدرجيني، 1974، 19-20).

فشلت محاولة الإباضية في إنشاء دولة لهم في أفريقية بزعامة أبي الخطاب المعافري أول أئمة الظهور في بلاد المغرب وذلك منذ سنة 140 هـ حين سيطر على طرابلس وقضى على خطر ورفجومة الصفرية والتي تشير المصادر الإباضية لسوء تصرفاتهم بالقيروان وعين عبد الرحمن بن رستم واليا عليها (الشمخي، 1987، 116) (أبو زكرياء، 1982، 62-63) (علي بن أبي الأكرم، 1987، 503) (عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 244-2000، 245) (محمود اسماعيل، 1985، 82-83) (عبد العزيز، دت اهداءات، 1999، 253). انتقل عبد الرحمن إلى المغرب الأوسط واستقر بجبل سوفجج بعد رحلة شاقة (أبو زكرياء، 1982، 71) (الدرجيني، 1974، 35) (الباروني، 2005)، فاشتهر خبره وانتقل إليه الإباضية من كل النواحي، فلحق به ستون شيخا من شيوخهم (أبو زكرياء، 1982، 71) (الدرجيني، 1974، 36) (الباروني، 2005، 48)، وقد التجأ عبد الرحمن بهذه البلاد لأنها مليئة بقبائل توافقه في المذهب، وهي قبائل لماية وهوارة، ومكناسة، ونفوسة، ومزاتة وغيرهم، وهم يعدون بمئات الآلاف (الباروني، 2005، 49).

تحصن عبد الرحمن ومن معه بالجبل المذكور المحادي لوادي أجاج وهو جبل في غاية الصعوبة والمنعة (الدرجيني، 1974، 36) (أبو زكرياء، 1982، 71) (الباروني، 2005، 48)، وبعدما وصل خبره إلى ابن الأشعث جهز له جيشا كبيرا تحت قيادته فحاصر الجبل، لكنه لم يستطع التسلل إلى مواقع الإباضيين المتحصنين مع عبد الرحمن، وزاد الأمر صعوبة انتشار داء الحمى والجدرى بين صفوف جيشه فولى راجعا إلى القيروان (أبو زكرياء، 1982، 71-72) (أبي العباس أحمد بن سعيد، 1974، 36) (الباروني، 2005، 48).

### العنوان الفرعي الثالث: المذهب الإباضي واحتضانه للعصبيات المؤسسة للدولة الرستمية

استغل عبد الرحمن بن رستم الفرصة واتصل بشيوخ المذهب الإباضي في المغرب الأوسط، فرحبوا به حينها غادر حصنه بسوفجج إلى منطقة تاهرت التي نزلت إليها قبائل الإباضية وعلى رأسهم هوارة، ولواتة، ومكناسة، ومزاتة، ولماية (الباروني، 2005، 48-49)،

وهناك عقد اجتماع ضم رؤساء الإباضية وشيوخهم بهدف اختيار إمام لهم خاصة أنهم في فترة هم أشد حاجة إلى الاجتماع والوحدة وجرى بينهم حوار حول من أحق بالإمامة فوقع اختيارهم على عبد الرحمن (ابن الصغير، دت، 25-28) ولأنهم رأوا أنهم أقوياء كفاية لتتويج حاكم "إمام" عليهم (virgineie, 2009, p55) لأنه " لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه" وهو في نفس الوقت من دعاة الإباضية الأوائل والمرافقين للإمام أبو الخطاب الذي ارتضاه وقلده أمور الإباضية من قبل، وبعملهم هذا يغلقون الأبواب أمام التنافس والتنافس على السلطة والزعامة بين هذه القبائل (ابن الصغير، دت، 26) (الشماعي، 1987، 125).

تمت بيعة عبد الرحمن بن رستم إماما للدولة الإباضية الجديدة في بلاد المغرب الأوسط والمعروفة بالدولة الرستمية سنة 160هـ/776م (الدرجيني، 40، 1974) (الشماعي، 124، 987)، ووقع اختلاف بين بعض المؤرخين حول سنة تأسيس تاهرت حيث ذكرت سنة 162هـ في نفس المصادر ويعتقد محمود إسماعيل أن البيعة كانت بيعتين، الأولى كانت في سنة 144هـ وذلك بعد موت أبي الخطاب على أساس انه إمام الدفاع، ثم سنة 162هـ حين بويغ ابن رستم إما الظهور (محمود اسماعيل، 150، 1985)، واختار الإباضية مكان تاهرت لإنشاء عاصمة لدولتهم (أبو زكرياء، 81، 1982) (الشماعي، 125، 1987) (الدرجيني، 41، 1974).

مثل عبد الرحمن بن رستم التجسيد الحي للتوجه الإباضي القاضي بتعيين الإمام من أهل الصلاح والفضيلة دون اعتبار لعروبه أو قرشيته (دراجي، 98، 2007)، وفي نفس الوقت هو الحل الأمثل في حالة تساوي العصبية من حيث القوة بأن يختاروا إماما لهم من غير قبيلهم، تفاديا للتنافس بينهم، وخاصة إذا كان صاحب دعوة دينية بل ومن طلبه العلم الخمسة كما سبق معنا ذكر ذلك، وقد بين ذلك ابن خلدون حيث قال: " أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق" وقال " أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة" فكل عصبية تمنع العصبية الأخرى عن الملك فلا يجمع كلمتها إلا دولة الحق. (عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 166، 2000 و173)، فكان الإمام التقي الذي تمكن من جمع الإباضية وأسس لدولة أصبحت تضم المغرب الأوسط كله، ما عدا تلمسان التي كانت تابعة للأدراسة وهي التي تأسست بها دولة بني سليمان من آل بيت إدريس إمام الدولة الإدريسية (بهلول، 2011)،

والزاب في بلاد الجزائر وهي المنطقة التي حول بسكرة جنوب قسنطينة. (ياقوت الحموي، 123، 124-1977) (جعيل، 2019، 389-393)، وجبل نفوسة جنوب طرابلس، وجزيرة جربة، إضافة إلى جنوب تونس المعروف ببلاد الجريد، فكانت الدولة الرستمية تحيط بالأغالبية من الغرب والشرق والجنوب (بحاز، 1993، 99)، لكن هذا التوسع جاء على مراحل في فترة حكمه وفترة حكم ابنه عبد الوهاب وحفيده أفلح.

### العنوان الرئيسي الثالث: الاضطرابات المذهبية والقبلية خلال حكم الأئمة الرستميين

شهدت الدولة الرستمية بعد عبد الرحمن بن رستم (توفي 171هـ/788م) العديد من الفتن والفتائل خاصة الداخلية منها، معظم هذه الفتن ترجع إلى أسباب فقهية مذهبية، ويعزى بعضها إلى عوامل قبلية عرقية، ويمكن القول أن الخلاف المذهبي ظهر بالخصوص على عهد الإمام عبد الوهاب بن رستم (171-211هـ/788-827م)، وابنه أفلح (211-240هـ/827-854م)، والذين تمكنوا من إخماد نارها سواء بالقوة أو باللجوء إلى المهادنة والسياسة، أما الصراع القبلي فظهر على عهد أبي بكر بن أفلح (240-241هـ/854-855م) وأخيه أبي اليقضان محمد (241-281هـ/855-894م) على أن أبا اليقضان لم تستقر له الإمامة إلا سنة 261هـ (ابن الصغير، 77)، وفي هذه المرحلة وهنت قوة الإمامة، وارتقت القوى العصبية المناوئة للحكم الرستمي ونجحت بعض منها في اغتصاب السلطة في تاهرت ثم استردت بعد ذلك، أما المرحلة الأخيرة فتتميز بظهور الوهن العام وتدخل العامة في شؤون الدولة، وقد مضى بهم الأمر حتى أنهم تدخلوا في تعيين الأئمة وعزلهم، وطمعت كذلك الطوائف غير الإباضية في تقلد الحكم، كما زاد الصراع الداخلي في الأسرة الحاكمة فأدى كل هذا إلى ضعف الدولة الرستمية وسقوطها سنة (297هـ-909م) (محمود اسماعيل، 154، 1985-1985).

### العنوان الفرعي الأول: الإخلال بتعاليم المذهب الإباضي وضرره على الدولة

عرفت الدولة الرستمية على عهد مؤسسها الأول عبد الرحمن بن رستم الاستقرار التام (virgineie, 2009.p56)، وذلك راجع لحسن سيرته وتصرفه، واتباعه لتعاليم المذهب، حيث تذكر المصادر الإباضية قصة اجتماع إباضية البصرة لتقديم معونة مالية للدولة الناشئة الرستمية، فوجد الوفد الذي بعث لتلك المهمة عبد الرحمن في حالة من

التواضع والوقار فيبلغ ذلك منهم مبلغا عظيما، ولما أرادوا تقديم إعانة أخرى للبرستيين بعد ثلاث أعوام وجدوا أمر تهمرت قد تبدل، فأُسست ضبيع ومنازل وقصور، وكل ذلك بفضل ورع عبد الرحمن وحسن تطبيقه لأحكام المذهب الإباضي (ابن الصغير، د.ت، 28-35) (أبوزكرياء، 83، 84-1982، 83، 84-1982، 125، 126-1987، 125، 138، 2005).

هذا الاستقرار لم يدم رغم أن عبد الرحمن وضع الإمامة شورى في سبعة نفر، وعين منهم ابنه عبد الوهاب (أبو زكرياء، 84، 85-1982، 84) (الباروني، 151، 2005) (الشماعي، 130، 1987)، فقام على الإمام الجديد يزيد بن فندين أحد السبعة المعينين يخالف التعيين الوراثي، وقد أوضح ذلك النفوسي إذ ذكر هذه الأحداث التي أرغمت عبد الوهاب على طلب الهدنة وأن تضع الحرب أوزارها حقنا لدماء المسلمين، ريثما يتصلون بإخوانهم المشاركة من أهل الفقه ليعلم المخطئ من المصيب (الباروني، 158، 2005)، وهو ما ينفي خروج ابن فندين حبا للسلطة، حتى أن بعضهم ذهب إلى أحقيته بالإمامة على عبد الوهاب. (محمود اسماعيل، 157، 1985، 78) مكرر وعدم الاعتراف بجماعة المشورة والتي يقتضي الأمر أن يرجع الإمام إليها (الشماعي، 131، 1987) (الباروني، 155، 2005).

يعتبر ابن فندين إمامة عبد الوهاب باطلا ما دام يوجد في الجماعة من هو أغزر علما منه في المذهب (الشماعي، 131، 1987) (الباروني، 155، 2005)، تابعه في هذا الاتجاه جماعة " النكار"، ودخلوا في ثورة مع الإمام عبد الوهاب، إلا أن نتيجة المواجهة كانت في صالح جند الإمامة وقتل خلال المعارك يزيد بن فندين (الشماعي، 47، 1987) (ابن الصغير، د.ت، 41-43) (الباروني، 151، 2005) (الشماعي، 130، 1987)، أدت هذه الفتنة الداخلية إلى انقسام مذهبي داخلي نتج عنه انقسام المجتمع إلى طائفتين وهابية ونكارية، غير أن الوهابية كانوا غالبية الإباضية (عبد العزيز، د.ت، 466)، ويذكر ابن تاويت أن عبد الوهاب ولكي يخرج من هذه الفتنة الداخلية التي كادت ان تعصف بالدولة، عمد إلى طرق تعتمد على العنف وسفك الدماء، فقال: ( ..لما ولي الحكم وقامت في وجهه المنازعات ثم الثورات حتى خلع عنه جلباب المثالية، وتدرع ذلك الدرع الفولاذي الذي لا يتأثر للعواطف ولا تنفذ فيه سهام الضمير، فتجلى على المسرح رجلا جبارا عنيدا...). ( محمد التيطواني، 1957).

كذلك توالى الخروقات الداخلية في الدولة على عهد عبد الوهاب وذلك بعد تشجيع حركة النكار لهم، يصف النفوسي الوضع قائلاً: (....صارت الدولة مظنة للضعف، ومرمى لسهام الطاعنين والطاغين) (الباروني، 167، 2005).

وظهرت كذلك فتنة الواصلية الذين يعيشون في كنف الدولة الرسمية وأكثرهم من زناتة حوالي سنة 195هـ-811م (محمود اسماعيل، 161، 1985)، اعتقاداً منهم خروج عبد الوهاب على الشريعة واغتصاب الإمامة قسراً، وهم في ذلك يخفون العداوة القديم بين الخوارج والمنعزلة، وقد أدى هذا الصراع إلى دخول الطرفين في قتال كان الغلبة فيه بداية للواصلية، فاضطر عبد الوهاب إلى طلب النجدة من إياضية نفوسة، فاستطاع هزمهم وتفريق جمعهم فلم يعد لهم تأثير واضح بعد ذلك (أبو زكرياء، 101، 1982-110) (الشماسي، 137، 1987-139) (الباروني، 169، 2005-178).

آخر خروج مذهبي على عهد عبد الوهاب يتمثل في ثورة خلف بن السمع بن أبي الخطاب المعافري وهو حفيد أبي الخطاب العافري، ويسمى الدرغيني خلف (بالخبث ابن الطيّب) (الدرغيني، 70، 1974)، الذي قاد معارضة من جبل نفوسة تطورت إلى ثورت دامت حتى عهد ابنه الإمام أفلح، نتج عن هذه الحركة خروج جماعة من الإياضية على الإمام عبد الوهاب وابنه أفلح متابعين خلف بن السمع محتجّين بجواز ازدواجية الإمامة مع وجود عدو يفصل بين أتباع المذهب (وهو الدولة الأغلبية)، أو لصعوبة الاتصال بين الطرفين (محمود اسماعيل، 163، 1985-164). وكان للقائد أبا عبيدة عبد الحميد الفضل في إخمادها سنة 221هـ-836م (أبو زكرياء، 118، 1982-122) (الدرغيني، 70، 1974)، ظل أتباع هذه الحركة والذين عرفوا بالخلفية) وهم من نفوسة وزواغة موالون لابن خلف المعروف (بالطيّب) حتى أواخر عهد الدولة الرستمية (محمود اسماعيل، 166، 1985).

ثارت حركة أخرى ضد الحكم الرستمي وهي حركة فرج بن نصر المعروف (بنفاث) وذلك على عهد أفلح بن عبد الوهاب (211-240هـ/826-854م)، وكانت هذه الحركة ذات مبدأ فقهي تختص بالإمامة ذاتها، ورغم محاولة مؤرخي الإياضية تقزيم هذه الحركة وصاحبها، إلا أنه لا يمكن الجزم بالصواب في كل ما يقولون، خاصة أن صاحب هذه الحركة كان طالباً للعلم ومتفوقاً فيه، وهذه المصادر نفسها تحكي عن رحلته لطلب العلم

في المشرق ونسخه لديوان جابر بن زيد، وأنه بلغ من العلم منزلة عظيمة، (الدرجيني، 82-1974، 77) (أبو زكرياء، 138، 1982-146)، ويذكر محمود اسماعيل أن هذه الحركة خلّفت أتباعا تمّ رصدهم حتى أواخر القرن الخامس الهجري (محمود اسماعيل، 1985، 168).

هذا أهم ما يمكن ذكره عن تلك الحركات المناوئة التي ظهرت في بداية الدولة، وكان سبب خروجها هو مسألة توريث الحكم والخروج بذلك عن أسس المذهب الإباضي خاصة، وما يلاحظ هنا أن نفس الصراع الذي قاده الخوارج ضد الخلافة الأموية خاصة بعد تعيين معاوية بن أبي سفيان ابنه يزيد وليا للعهد، وقعت هي فيه فأصبح أئمتها يولون أبناءهم وراثته، وكان ذلك منذ عهد عبد الوهاب. (ابن الأثير، 1987، 352) (ابن كثير الدمشقي، 79، 1992-80) (عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 2000، 19-21) (النوري شهاب الدين، د.ت، 218).

### العنوان الفرعي الثاني: الصراع العصبي والنزاع الأسري وأثرهما على الدولة

تمر الدول في العصر الوسيط بأجيال ثلاثة حسب عبد الرحمن بن خلدون، حيث يذكر بأن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص، والجيل الثالث يحدث فيه نسيان الناس لعهد البداوة والخشونة، وتتلاشى فيه العصبية ويكثر فيه الترف، فيستظهر صاحب الدولة بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالي، حتى يحين وقت فناء الدولة (ابن خلدون، 2000، 180)، وهذا ما حدث للدولة الرستمية في آخر عهدها حيث تلاشت قوة العصبية المؤسسة للدولة، وزادت قوة العصبيات الأخرى على حسابها، ودخل أئمة الدولة خاصة منذ عهد أبي بكر بن أفلاح الذي حكم سنة 240هـ-854م في صدام شبه مستمر داخلي أزهق الدولة وأدى إلى زوالها.

رغم كل تلك الصراعات التي عصفت بالدولة الرستمية والتي كان أساسها في الغالب خروج عن الإمارة دافعه الاختلاف الديني والإمامة كانت ذروة سنامه، إلا أن قوة وحنكة وحزم السلاطين الرستميين وقف حاجزا دونها، لكن وفي نفس الوقت نجد أن الصراع والتنافس القبلي ظهرت له بوادر منذ عهد عبد الوهاب، فنجده مثلا يقضي على خطر قبيلتي مزاتة وسدراتة والتي كانتا تنتجعان بالمحاذاة من تاهرت طلبا للعشب لأغنامها، ولما ينتهي موسم الرعي يدخل تاهرت وجوههم ورؤسأوهم فيقضون حوائجهم ثم ينصرفون

(ابن الصغير، د.ت، 41)، لكنهم وبتحريض من النكار انتقاما لما حصل لهم مع الإمام عبد الوهاب، دخل وفد من زعماء هذه القبائل على عبد الوهاب وطلبوا منه حسب قولهم تخليص الأمة من قاضيه وصحاب بيت المال والقائم بالشرطة، فأجابهم عبد الوهاب لذلك، لكن وبعد مناقشة وجوه الدولة وقادتها تبين له أنه أخطأ التصرف، فلما اجتمع معهم مرة ثانية وحضر معه وجوه الدولة أبدوا موافقتهم المبدئية على طلبهم لكنهم اشتروا عليهم أن لا يعزلوا أحد دون دليل على مخالفته، فأثار ردّهم هذا غضب زعماء القبائل وعزموا على حربه، فتمكن عبد الوهاب من القضاء عليهم بعد أن حذّهم فلم يستجيبوا له، وهذا يبين الهوة التي أحدثت بسبب هذه الفتنة بين الإمام ومن يواليه من بعض القبائل البربرية والموالي والعرب وبين قبائل مزاتة وهوارة (ابن الصغير، د.ت، 41-44).

وهنا يعترف ابن الصغير وهو مؤرخ عايش الدولة الرستمية بالهوة التي أحدثت بين الرستميين وبين قبائل هوارة ومزاتة فيقول: (ثم انصرف عبد الوهاب نافلا بمن معه وولت القبائل الداعية إلى مواضعها، واستملك الأمر لعبد الوهاب وبقيت حزازات النفوس في قلوب عشائر من قتل). (ابن الصغير، د.ت، 44) (الباروني، 2005، 81-84).

استعمل عبد الوهاب كذلك من الحيلة ما مكنه من إضعاف تآلف قبائل البربر التي كانت تشكل خطرا على الدولة، فقام بإفشال محاولة التحالف الذي كان منتظرا بين قبيلتي هوارة ولواتة، لما تقدم زعيم بني مسالة ويعرفون كذلك بالأوس وهم من أهم وأقوى بطون هوارة إلى زعيم لواتة من أجل مصاهرته طالبا ابنته للزواج، فلما علم بذلك عبد الوهاب سارع لإفساد هذه الوحدة بطلب يد المرأة المعنية من يد أبيها، فلما علم بذلك زعيم مسالة غضب واعتزل تهرت ثم قامت الحرب بين الطرفين كان النصر فيها لعبد الوهاب (ابن الصغير، د.ت، 45-47) (الباروني، 2005، 84-87).

اتّسم عهد أفلح بن عبد الوهاب بفترة طويلة من السلام، مكنت العناصر المجتمعة في الدولة وهم البربر وعناصر من الفرس والعرب والجند الإفريقي من التموّع في الدولة بشكل أو بآخر، يقول ابن الصغير في هذا الصدد: (كان العجم قد ابنتت القصور، ونفوسة ابنتت العدو، والجند القادمون من افريقية قد بنت المدينة العامرة اليوم، وأمنت الساحات وكثرت الأموال حتى أطغت أهل الحواجر والبيوادي)، ويقول كذلك: (وكانت

القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت لما اكتسبت الأموال واتخذت العبيد والخيول قد نالها من الكبر ما نال أهل المدينة) (ابن الصغير، د.ت، 54)، لذلك عمد أفلح إلى سياسة التضريب كما سماها ابن تاويت ( محمد التيطواني، 1957، 122)، فعمد إلى بث الجواسيس بين القبائل ليأمن شرهم فأصبح كل زعيم يستسلم للإمام مخافة ان يشمت به زعيم قبيلة أخرى. (ابن الصغير، د.ت، 53) (الباروني، 2005، 233).

لكن أفلح قام بأمر نفعه في عاجلته ورجع على الدولة بالخسران حيث: ( أرش ما بين كل قبيلة ومجاورها، فأرش بين لواتة وزناتة وما بين لواتة ومطماطة وما بين الجند والعجم حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب) (ابن الصغير، د.ت، 53) (محمود اسماعيل، 1985، 150)، وبفضل هذه السياسة نعم هو ورعيته بالهناء والراحة والدعة، وانتشرت حياة اللهو والمجون وانغمس الناس فيها، ثم بدأت الخصومات تلوح في الأفق ( محمد التيطواني، 1957، 123).

لما مات أفلح بن عبد الوهاب سنة 240هـ-854م خلفه ابنه أبا بكر (240-241هـ/854-855م)، وله أخ آخر يقال له أبو اليقضان محمد المرشح الأول للخلافة لكنه تعرض للسجن في بغداد على عهد أبيه بعد أن عرفت هويته وكان ذاهبا لأداء فريضة الحج (أبو زكرياء، 1982، 146) (ابن الصغير، د.ت، 59 و77)، والغالب أن قبيلة نفوسة كان لها السبق في تولية أبي بكر رغم عدم كفاءته، حتى أن أحد علماء الإباضية في ذلك الوقت وهو عبد العزيز بن الأوز، الذي عرف بتعمقه في الفقه الإباضي خاطب نفوسة قائلا: (الله سائلكم معاشر نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى) (ابن الصغير، د.ت، 61) (الباروني، 2005، 276) (محمود اسماعيل، 1985، 172).

يمكن ان نقول أن قبيلة نفوسة وهي القبيلة المؤسسة للدولة والغالبة كانت تسعى أن تنصب أحد أولاد أفلح حفاظا على الحكم رغم عدم كفاءته، وكذلك حفاظا على مصالحها، فلو تركت الأمر للشورى فلربما تخرج الزعامة من يدها إلى يد قبيلة أخرى، لكن هذا الأمر لم يصلح معها هذه المرة، فقد وافق أن وطّد أبو بكر صلته بالجنند، وصاهر زعيم العرب محمد بن عرفة وسلم إليه مقاليد الحكم، لأنه كما يصفه ابن الصغير كان ضعيفا

ميالا إلى الترف والملذات، شغوفاً بالأدب والتواريخ (ابن الصغير، د.ت. 62) (محمود اسماعيل، 1985، 172).

لم يكن الأمر هيئاً على نفوسة ولا على أبي اليقضان وقربته من إخوانه وأعمامه، حيث وصل الأمر بهم أنهم لا يدخلون عليه إلا بعد الاستئذان وهو في مجلس الحكم وإلا ينصرفوا، في حين جعل الباب مفتوحاً لنسيبه ابن عرفة يدخل ويخرج كيف ما يحلو له (ابن الصغير، د.ت. 64) (الباروني، 2005، 279)، هذا ما دفع أبو اليقضان بعد أن حسنت سيرته في قلوب نفوسة والرستميين إلى تحريض أخيه أبا بكر بقتل ابن عرفة بعد أن تبين لأبي بكر صحة مزاعم أبي اليقضان ومن وافقه وخشي من زيادة نفوذ ابن عرفة وتفاقم خطره على الأسرة الحاكمة، مما استوجب عليه قتله، فقتله (ابن الصغير، د.ت. 65) (الباروني، 2005، 279-281).

أثار هذا الفعل العرب والجنود الأفارقة فطالبوا بالثأر لزعيمهم ابن عرفة، وانضوت الرستمية تحت لواء الإمام أبي بكر، أما الفرس فانتظروا الفرصة السانحة للانقضاض وانتزاع الملك، واعتزلت القبائل البربرية خارج تاهرت ترتقب النتائج (محمود اسماعيل، 1985، 173).

وهنا يذكر ابن الصغير رواية تفيد أن القتال بدأ بين العرب والجنود من جهة وبين أبي بكر وعائلته والرستميين والسامحيين أتباع السامح بن أبي الخطاب من جهة أخرى، وقتل من الطرفين خلق كثير، وهنا اغتنم الفرس الفرصة وحاولوا الاستيلاء على تاهرت، فلما علم الطرفان المقتتلان بذلك اصطلحا واتفقا على قتال الفرس، فقاتلوهم حتى قتلوا منهم وأسروا أعداداً كثيرة، وهنا اعتزل أبو بكر في داره وانظم أخوه أبو اليقضان إلى نفوسة معتزلاً للفرقين وكان ذلك سنة 241هـ، ثم ما لبث أن اجتمع الفرس ونفوسة ضد العرب فكان القتال بينهم، لكن هذه المرة أسفر القتال على انتصار الجنود والعرب، وأرغم أبو اليقضان وحلفاؤه على مغادرة المدينة، ثم إن الأمر لم يبق في يد الجنود والعرب فقد تم إخراجهم عنها من قبل قبيلة هواة وزعيمهم محمد بن مسالة وصفت له تاهرت، ثم وقعت بين قبيلة هواة ولواتة خلافات انتهت بطرد لواتة خارج المدينة، فتحالفت لواتة مع أبي اليقضان وبإيعونه سنة 261هـ-875م، على خلاف ما يذكره الباروني أن المبايعة كانت سنة

241هـ، وهو أمر مستبعد لأن وفاة أفلح كانت سنة 240هـ (الباروني، 290، 2005)، وتبعهم في ذلك غالبية القبائل وانكروا حكم ابن مسالة لكنهم لم يتمكنوا من دخول المدينة عنوة لمدة سبع سنوات، مما دفع أبا اليقضان إلى الاستعانة بجبل نفوسة وكان له المدد فدخل المدينة دون قتال سنة 268هـ-882م (ابن الصغير، 69-76) (الباروني، 2005، 283-292).

يمكن القول أن الدولة الرستمية كانت تمر بفترة من الفوضى السياسية، فأصبح كل زعيم يريد الاستحواذ على الملك، سواء من قبل القبائل البربرية أو الجند الأفارقة أو العرب أو حتى الأعاجم وعلى رأسهم الفرس، وكان ذلك نتيجة حتمية عن انقلاب نظام الحكم من شوري إلى وراثي، بالإضافة إلى تلك السياسات غير الناجحة من قبل بعض الأئمة والتي اعتمدت على المكر والخديعة والإيقاع بين القبائل التي تنتهي إلى إثنيات ومذاهب مختلفة.

رغم أن أبا اليقضان تمكن من استرجاع الحكم واستمر في الحكم إلى سنة 281هـ (ابن الصغير، د.ت، 89)، فهو الذي انتهج سياسة تعتمد على الاعتدال وتهدئة النفوس عكس سابقه، ومن ذلك أنه ابتعد عن سياسة التعصب وتفضيل بعض القبائل والفئات بمناصب الدولة، كما فعل مع نفوسة فرغم مساعدتها له على استرجاع تاهرت إلا أنه قلل من امتيازاتها السابقة، كما عقد له مجلسا للمشورة يجمع وجوه القبائل وكافة العناصر المقيمة بالدولة، كما تساهل مع أتباع المذاهب الأخرى والفرق وترك لهم الصلاة في المساجد سوى المسجد الجامع كنوع من التسامح الديني (ابن الصغير، د.ت، 77)، إلا أن هذه الطوائف والفرق علا شأنها في تاهرت آخر عهد أبي اليقضان بسبب ضعف العصبية القبلية الناتج عن صراعها شبه الدائم، وسياسة التسامح التي انتهجها أبو اليقضان تجاهها (محمود اسماعيل، 178، 1985)، حتى وصل الحد بالشيعة أن كانوا يتلون خطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منابر تاهرت (ابن الصغير، د.ت، 77-78)، ثم أن الدولة بعدها دخلت عهد الشيخوخة، حيث ظهر عائق آخر في وجه استمراريتها وهو تنافس أصحاب البلاط على الملك، فتعرض حكم خليفة أبي اليقضان وهو أبو حاتم بن محمد أبي اليقضان، إلى صراع بينه وبين عمه اليعقوب ابن أفلح، ورافق ذلك تطور الصراع بين الفرق المختلفة في تاهرت من مالكية ومعتزلة وشيعة إضافة إلى المذهب

الإباضي بكل طوائفه، من نكارية ووهبية وخلفية وسمحية هذا ناهيك عن الكوفيين والعجم والجند والعرب والبربر (بحاز، 126، 1993).

وحتى تنصيب أبا حاتم على رأس الدولة كان بتأثير أمه "غزالة"، فبعد موت أبا اليقضان إبتدره العوام والفتيان دون القبائل فحملوه فوق الأعناق وأوصلوه إلى دار الحكم وأرسلوا إلى القبائل لمبايعته (ابن الصغير، د.ت، 89)، ولردّ هذا الاستحواذ الخارجي المتمثل في العامة على الإمام، وعلى رأسهم فقهاء المذاهب الأخرى ومنهم فقهاء الحنفية والشيعة، حاول أفراد أسرته وعشيرته أن يجعلوا له حجابا وهيبة، وعلم هو بتخطيط مشايخ الكوفيين مع زعماء العامة لقتله، وإضعاف المذهب الإباضي، فلما تفتن لهم أخرجهم من المدينة، لكنهم تمكنوا من تأليب الناس عليه وطرده من تاهرت سنة 282هـ / 896م فاستقر في حصن لواتة (المراكشي، 197، 1983)، لكن أبا حاتم لم يستسلم بل استعان بقبائل صنهاجة والعجم بالإضافة إلى نفوسة والرستمين وزحف بهم على تاهرت وحاصرها طالبا كشرط لفك الحصار تسليم شيوخ العامة والفرق، لكنهم رفضوا واستدعوا عمه أبا يعقوب الذي كان قبل ذلك غير راض بتعيين أبي حاتم إماما فنزل أبا حاتم عند زواغة (ابن الصغير، د.ت، 93-95).

بقي يعقوب إماما على الرستمين أربع أعوام كان فيها الصراع شبه دائم بينه وبين أبي حاتم حتى تدخل شيخ مزاتة أبو يعقوب المزاتي لعقد الهدنة بينهما (ابن الصغير، د.ت، 99) (الباروني، 325، 2005-326)، واغتنم أبو حاتم هذه الهدنة فاستمال قلوب الناس حتى تمكن من الرجوع للإمامة مجددا سنة 286هـ / 900م، أما عمه يعقوب فغادر هو وأتباعه إلى زواغة (ابن الصغير، د.ت، 100).

لم يكن دخول أبي حاتم إلى تاهرت دخول قوة وتغلب يمكّنه من مسك أمور الحكم بحزم، لكونه كان تحت وصاية زعماء العامة (محمود اسماعيل، 120، 1985)، ولم يمكنه موقفه هذا من البث في أمور الدولة بمفرده، حيث شاركه فيها المشايخ الإباضية وغير الإباضية (ابن الصغير، د.ت، 101) (الباروني، 2005، 327)، كما أن مناصب الدولة لم تعد حكرا على نفوسة والعجم، فبرزت عناصر جديدة كانت لها المكانة في مناصب الدولة، إذ يذكر محمد إسماعيل ويخيل له كما قال هو، أن القاضي عبد الله بن أبي الشيخ وإبراهيم

بن مسكين الذي ولي الشرطة أنهما كانا من العرب الأحناف (محمود اسماعيل، 1985، 180).

لم يسكن الأمر عند هذا الحد فتذكر المصادر الإباضية حركة تمرّد قادتها قبيلة زواغة بقيادة الطيب بن خلف بن السمح ضد أبي حاتم، فكلّف عامله على طرابلس أبو منصور إلياس بالقضاء عليها، حيث تمكن هذا الوالي من إحراز انتصارات كبيرة على الطيب وأتباعه من الخلفية الذين التجأوا إلى جزيرة جربة، وتم في الأخير أسر الطيب واقتيد إلى جبل نفوسة حيث سجن ثم أطلق سراحه وكان يلقب بالطيب بن الخبيث بن الطيب 124 (الباروني، 2005، 332).

تواصل الصراع الأسري داخل البيت الرستمي حيث تعرض الإمام أبو حاتم بن محمد أبي اليقضان إلى الاغتيال سنة 294هـ/907م على يد أبناء أخيه أبي اليقضان طلبا للإمامة ونصبوا مكانه اليقضان بن أبي اليقضان (المراكشي، 1983، 197) (الباروني، 2005، 344)، وهو آخر الأئمة الرستميين الذي سقطت خلال حكمه الدولة الرستمية سنة 296هـ/909م على يد الداعي الشيعي أبو عبد الله (المراكشي، 1983، 197) (الباروني، 2005، 346)، وحتى في هذه المرحلة البائسة للدولة يذكر لنا النفوسي خيانة أخرى وكانت هذه المرة من قبل بنت الإمام المغدور أبا حاتم والتي تدعى (دوسرا) والتي عرضت نفسها للزواج من الحجاني أبو عبد الله مولى أبي عبد الله الداعي والذي كان مقيما عند قبيلة كتامة، مقابل أن يقتص لها من قتلة أبيها إلا أنه لم يجدها، لكنه وحينما استدعاه الشيعي وأثناء مروره بالقرب من تاهرت خرج إليه وجوه المدينة من فرق شيعية وواصلية وصفرية ومالكية، يشتكون له اليقضان ويعدونه بمعاونته لانتزاع الأمر من يد العائلة الرستمية مبينين له ضعفهم وهوانهم، قائلين له: "فلا رجال ولا عسكر لليقضان"، فأرسل الحجاني لليقضان للمجيء إليه ففعل، ثم أهانه وقتله هو ومن معه سنة 296هـ ثم دخل تاهرت فاستباحها وأحرق مكتبتها المشهورة (بالمعصومة) بعد أن أخذ منها نفائس الكتب غير كتب المذهب الإباضي، وكان هذا آخر عهد للدولة الرستمية (الباروني، 2005، صفحات 345-346).

#### خاتمة

وفي خاتمة هذا البحث يمكن استخلاص النتائج التالية:

- في بلاد المغرب الإسلامي عان البربر كثيرا مع ولاة الخلافة الأموية فكانوا عرضة لاستهجان كثير من هؤلاء الولاة، إذ وضعوهم في المرتبة الثانية مع الأعاجم والعبيد والأفارقة، في الوقت الذي تدعو فيه نصوص الإسلام إلى تحريم التفرقة على أساس عرقي .

- استطاعت الإباضية والصفيرية احتواء الثورات البربرية بما تحتويه من مبادئ تدعو إلى التساوي بين الأمم المنضوية تحت راية الإسلام، وتعطي الحق في الإمامة لكل مسلم تتوفر فيه شروط الإمامة دون شرط القرشية.

- دخل المذهب الإباضي إلى بلاد المغرب الأوسط وبالأخص بين قبائل لماية وهوارة مكناسة ونفوسة ومزاتة وغيرهم، قبل حلول عبد الرحمن بن رستم بين ظَهْرَانِهِمْ ، لكن وبما أن هذه القبائل كانت متساوية في القوة والنفوذ فكان من الصعب عليهم تأمير رجل منهم عليهم، لذلك توافقوا على اختيار عبد الرحمن بن رستم إماما عليهم لفضله وعلمه وسابقته في الدعوة والجهاد.

- عاشت الدولة في عهد عبد الرحمن بن رستم فترة من الاستقرار المذهبي والسياسي، وذلك بفضل حكمته وزهده، حيث آمن الخارج بسياسته الناجحة فسالم الأغلبية وصاهر المدراريين، لكن هذه السياسة لم تكن لتدوم خاصة بعد انتقال الإمامة لبنيه عن طريق الوراثة، مخالفين في ذلك مبدأ الانتخاب (الشورى) الذي بنيت عليه الدعوة الخارجية أُسُسَهَا.

- شهدت الدولة على عهد الإمامين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وابنه أفلح بن عبد الوهاب صراعات داخلية كان أساسها ومحركها هو الخلاف على الإمامة، وحتى وإن تم إخماد نارها إلا أنها تركت بصماتها على الدولة، وأول هذه البصمات هو خدش هيبة الإمامة، كما تمكن الأئمة من إخماد النعرات القبلية الثائرة سواء بالحرب أو بالحيلة ، والتي ربما أتت أكلها في عاجل الدولة لكن هذه السياسة أثرت على الدولة فيما بعد.

- بعد أن ضعف الوازع الديني في الدولة الرستمية وانتقلت فيها الإمامة من الشورى إلى التوريث ، ظهرت بالدولة مجموعة من الصراعات القبلية والنزاعات الأسرية وذلك منذ عهد عبد الوهاب، لكنها استفحلت أكثر على عهد أبناء الإمام أفلح بن عبد الوهاب، وهنا بدأ الصراع بين العرب والجنود الأفارقة وبين الإمام ومؤيديه من الرستمية والقبائل

البربرية وعلى رأسهم نفوسة، ودخل العنصر الفارسي في الأحداث محاولا الاستلاء على تهمرت.

- تجددت الصراعات في الدولة الرستمية بعد أبي اليقضان الذي توفي سنة 281هـ حيث ظهرت صراعات أخرى أسرية، ودخل في هذا الصراع العامة والفرق المختلفة في الدولة من مالكية ومعتزلة وشيعة، بالإضافة إلى الطوائف المتعددة للمذهب الإباضي كالنكارية والوهبية والخلفية والسمحية، بالإضافة إلى تطلع الكوفيين والعجم والجند والعرب والبربر للسلطة والزعامة في الدولة.

- رغم تمكن أبو حاتم من استرجاع الإمامة سنة 286هـ-900م لكنه لم يكن الأمر النهائي الوحيد بل شاركه في اتخاذ القرار الإباضية وغير الإباضية، حتى تعرض للاغتيال سنة 294هـ-907م على يد أبناء أخيه، وكان هذا إيذانا بسقوط الدولة الرستمية والذي كان سنة 296هـ-909م على يد الداعي الشيعي أبي عبد الله.

- رغم أن الدولة الرستمية عمرت ما يزيد عن القرن من الزمان ومرت بمراحل قوّة وضعف إلا أننا لمسنا أن الخطر الداخلي والذي نقصد به تلك الصراعات الداخلية التي تعرضت لها الدولة سواء كانت عصبية أو فقهية أو مذهبية وحتى عائلية، والتي أدت في النهاية إلى إضعاف الدولة وجعلها عرضة للخطر الخارجي والمتمثل في سقوطها على يد العبيديين الشيعة، هو العامل الأساسي الذي أدى إلى شيخوخة الدولة وجعلها ضعيفة أمام الطالب.

### قائمة المراجع

1. ابن الأثير أبي الحسن علي. (1987). الكامل في التاريخ (المجلد 4). (محمد يوسف الدقاق، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
2. البكري أبي عبد الله. (1857). المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. الجزائر، الجزائر: المطبعة الحكومية.
3. البكري أبي عبد الله. (1857). المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. بغداد / الجزائر، العراق والجزائر: مكتبة المثلث / المطبعة الحكومية.
4. الدرجيني أبي العباس. (1974). كتاب طبقات المشايخ بالمغرب (المجلد 1 و2). (ابراهيم طلاي ، المترجمون) قسنطينة، الجزائر: مطبعة البعث.



20. ابن قتيبة أبي محمد عبد الله مسلم. (د.ت). المعارف (الإصدار 4). (ثروت عكاشة، المترجمون) القاهرة: مطابع النهضة.
21. الرقيق القيرواني أبو اسحاق ابراهيم بن لقاسم. (1990). تاريخ إفريقية والمغرب (الإصدار 1). (عز الدين عمر موسى عبد الله العلي الزيدان، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
22. الشماخي أحمد بن سعيد بن عبد الواحد. (1987). كتاب السير (المجلد 1). (أحمد بن سعود السيابي، المترجمون) مسقط: مطابع النهضة.
23. بن خياط خليفة. (1985). تاريخ خليفة بن خياط (الإصدار 2). (أكرم ضياء العمري، المحرر) دار طيبة.
24. ابن خلدون عبد الرحمن. (2000). تاريخ ابن خلدون (الإصدار 6.4). (خليل شحادة، و سهيل زكار، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الفكر.
25. ابن خلدون عبد الرحمن. (2021). المقدمة (الإصدار 1). (مصطفى شيخ مصطفى، المترجمون) بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون.
26. الذهبي أبي عبد الله شمس الدين. (2004). سير أعلام النبلاء. لبنان: بيت الأفكار.
27. المراجع:
28. إبراهيم بحاز. (1993). الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م) (المجلد 2). غرداية: المطبعة العربية.
29. أحمد بن خالد أبو العباس الناصري. (1997). كتاب الإستقصاء لأخبار المغرب الأقصى (المجلد 1). الدار البيضاء: دار الكتاب.
30. أسامة الطيب جعيل. (مارس، 2019). حواضر إقليم الزاب الكبرى في العصر الوسيط-من خلال كتاب الجغرافيا البلدانية دراسة تاريخية. مجلة مدارات تاريخية، 1(1)، الصفحات 358-404.
31. ألفرد بل. (1987). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم (الإصدار 3). (عبد الرحمن بدوي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
32. بوزيان دراجي. (2007). دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس. الجزائر: دار الكتاب العربي.
33. سليمان باشا الباروني. (2005). الأزهار الرياضية (الإصدار 1). (محمد علي الصلابي، المترجمون) لندن: دار الحكمة.
34. سليمان بهلول. (2011). الدولة السليمانية والإمارات العلوية في المغرب الأوسط (الإصدار 1). (غازي الشمري، المترجمون) تلمسان: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.

35. يوسف العث. (1985). الدولة الاموية والأحداث التي سبقها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان (الإصدار 2). دمشق، سورية: دار الفكر.
36. يوليوس فلهاوزن. (1958). أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام ( الخوارج والشيعة). (عبد الرحمن بدوي، المترجمون) القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
37. محمد أبو سعدة. (1998). الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي (المجلد 2). القاهرة: مكتبة الإسكندرية.
38. محمد التيطواني ابن تاويت. (1957). دولة الرستميين أصحاب تمهت. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، 1-2(5)، الصفحات 105-128.
39. محمد عيسى الحريري. (1987). الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160-296هـ). الكويت: دار القلم.
40. عبد الرزاق محمود اسماعيل. (1985). الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري (الإصدار 2). المغرب: دار الثقافة.
41. عبد العزيز سالم. (د.ت.). تاريخ المغرب في العصر الإسلامي. الإسكندرية: مؤسسة الشباب الجامعية.
42. علي محمد الصلابي. (2008). الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار (الإصدار 2، المجلد 1). بيروت، لبنان: دار المعرفة.
43. خالد كبير علال. (2009). بحوث حول الخلافة والفتنة الكبرى خلال العهد الراشدي. الجزائر: دار الكنوز.
44. virgineie, p. (2009). Abd al -Rahman ibn Rustum al -Farisi Une tentative de biographie du premier imam de Tahart. (j. benjamin, Éd.) DER ISLAM ZEITSCHRIFT FUR GESCHICHTE UND KULTUR DES ISLAMISCEN ORIENTS, 86(1),